الاتجاه الوطنى فى شعر الشيخ محمد عبد المطلب

دكتور / السيد على حسن

المدرس بآداب سوهاج

وردت كلمة « الوطن » فى تراثنا الأدبى واللغوى بمعنى المنزل أو المكان الذى نقيم به وننتمى إليه . يقول ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيعـــه ... وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

ويقول رفاعة الطهطاوى فى تعريف الوطن : « هو عش الإنسان الذى فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ومقطع سرته ، وهو البلد الذى نشأته تربته ، ورباه نسيمه ، وحلت عنه التمائم فيه » . (١)

كما وردت الكلمة بهذا المعنى فى لسان العرب والمعجم الوسيط فى مادة « وطن » .

وقد تطور مدلول كلمة « الوطن » وارتبط تطوره ببعض مفاهيم علم السياسة كالدولة وعلاقة الفرد بالسلطة وعلاقة الأفراد داخل الوطن وخارجه ، وهذا ما يعبر عنه فى الفرنسية بالكلمة « Patrie » وهى تعنى المجتمع السياسى الذى ننتمى إليه ، أو نحمل له شعوراً بالانتماء إليه . (٢)

وقد تكون مدرك الوطن فى المجتمعات خلال رحلتها الطويلة نحو تحقيق مجتمع الدولة ، حيث أدى ظهور الإقليمية إلى وضوح مفهوم السلام والحرب

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ، تحقيق محمد عمارة ج ٢ طبعة بيروت ١٩٧٤ م

2. Patit Robert, Le edition, Paris, 1972

وشعر الوطنية عند رفاعة الطهطاوى ، د . أحمد سيد محمد ، ندوة الطهطاوى بسوهاج فبراير ١٩٨١ ص ٢ .

على أساس أن إقليم الجماعة هو دار السلام ، وأن ما وراءه هو دار الحرب ، وهيأ ذلك لظهور مدرك الوطن Patrie كدار للسلام يورثها الاباء الأبناء ، وحيث تتوافق المصالح تنعقد الآمال فى مواجهة هؤلاء المقيمين وراء حدوده ، وتظهر « الوطنية » كمفهوم يعبر عن الترابط الواعى بإطاره الإقليمى . (١)

وقد عاصر الشيخ محمد عبد المطلب (٢) ظهور فكرة الوطنية المصرية التى قامت « تعارض الجامعة الإسلامية والجامعة العربية ، وترى أن جامعة الوجود المكانى التى تربط بين من يعيشون على هذه الأرض اليوم وبين من عاشوا عليها منذ آلاف السنين هى أقوى وأحق بالرعاية من الجامعة التى تربط بينهم وبين أبناء جيلهم ممن يعيشون فى غير مصر ، وهى أقوى وأحق بالرعاية من الجامعة الروحية التى تربط بينهم وبين أبناء دينهم ، ومن الجامعة العقلية والثقافية التى تربط بينهم وبين أبناء لغتهم » . (٣)

وواضح أن هذه نزعة انفصالية ، ودعوة لقيام الجامعة المصرية الفرعونية .

---

(١) تنظير السياسة ، د . محمد طه بدوى ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٨١ ، وشعر الوطنية عند رفاعة ص ٢ .

(٢) هو محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر بن بخيت بن حارس بن قراع بن على بن أبى خبر ، ولد فى قرية «باصونة» إحدى قرى مركز المراغة بمحافظة سوهاج سنة ١٨٧٠ م ، وهو سليل أسرة أبى خبر من جهينة إحدى بطون قبيلة قضاعة العربية التى قدم بعضها إلى مصر أيام الفتح العربى مددا للفاتحين .

- وقد نشأ فى بيئة عربية صميمة ، وكان مولده فى بيت علم ودين ؛ فقد كان والده الشيخ عبد المطلب رجلا تقيا صالحا متفقها فى الدين ، كما كان خليفة للشيخ اسماعيل أبى ضيف شيخ الطرق الصوفية بناحية جهينة .

- تعلم فى الأزهر الشريف حيث قضى به سبع سنوات ، ثم التحق بدار العلوم وتخرج منها سنة ١٨٩٦ ، وعمل مدرسا بسوهاج وأسوان ، ثم اختير مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى ثم دار العلوم .

- كان شغوفا باللغة العربية وعلوم الدين والأدب ولاسيما شعر الأقدمين ، وحاكى الشعراء القدامى فى مقاصدهم وأغراضهم مما أكسب شعره صبغة عربية بدوية فعرف بشاعر البادية .

(٣) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ، د . محمد محمد حسين - مكتبة الآداب بالجماميز ص ١٤٠ .

وشعر الشيخ محمد عبد المطلب يمثل مرحلتين فى حياته : المرحلة الأولى وهى تلك الفترة التى قضاها بالصعيد مدرسا بالمدارس الابتدائية والثانوية ، ويغلب على شعره فيها الإخوانيات من تهنئة واعتذار وعتاب وتشوق وشكوى . الخ (١) .

والمرحلة الثانية تبدأ بنقله إلى القاهرة مدرساً بمدرسة القضاء الشرعى التى كان بها سنة ١٩١٣ كما جاء فى ديوانه ، ويتسم شعره فيها بالطابع الوطنى فقد اتصل فى أثنائها بالسياسة ، وشاهد الأحداث الوطنية التى تمثلت فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وانفعل بها ، وعبر عنها أصدق تعبير(٢) .

وقد تهيأت ظروف تكوين التيار الوطنى فى شعر الشيخ محمد عبد المطلب من عناصر الفطرة الذاتية وتطور الحياة الوطنية فى مصر نتيجة الأحداث السياسية التى شاهدها .

ومفهوم الوطنية — كما يبدو فى شعره — يدور فى فلك « المصرية » فهو شديد الاعتزاز بمصر ، متعصب لها ، داع إلى افتدائها بالأرواح ، وبذل كل عزيز وغال فى سبيلها :

مصر أمى فداءُ أمى حيـــاتى سلمت أمنا من العاديـات
يا رياح الحياة فى مصر هبى روّحينا بطيب ريا الحيـاة
يا سماءَ الحياة فى مصر جـودى أنفسا فوق نيلها صاديات (٣)

---

(١) ديوان عبد المطلب ، مطبعة الاعتماد . انظر قصائده ص ١ ، ٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٨٦ ، ٩٣ وغيرها .

(٢) اطلعت على ديوانه فلم أجد له شعرا وطنيا قبل هذه المرحلة ، فهو لم يذكر شيئا عن وطنية الزعيم مصطفى كامل الذى كانت وفاته سنة ١٩٠٨ .

(٣) ديوان عبد المطلب ص ٣٣ .

فهو ابن مصر البار الذى يفتديها بحياته ، والذى يرمى إلى قيام ثورة عاتية عارمة تقتلع أقدام المستعمرين ، وتقيم صرح الحرية والحياة الكريمة فى مصر .

وهو شديد الإعجاب بمصر وجمالها ونيلها واعتدال جوها ، ونعيم الحياة فيها ، دائم الفخر بأمجادها التليدة ، وآثارها الخالدة التى بهرت العالم وحيرت العقول :

سرُّ الجمال جمال مصر إذا سرتْ ... ريح الشمال بها وعبَّ النيـل
بلد جريتُ إلى المنى فى ظلـه ... سبْحًا على اللذات وهى شُكول
بهرت مصانعها الزمان ولم تزل ... للعقل فيها حيرة وذهـــول
جلست على الآباد فى جبْريّة ... تقف البِلى من دونها فيحُـول
مشتَى الملوك مراد أرباب النهى ... هذا يحل بها وذاك يزول (١)

كما أنه كثير الزهو بمصر ونيلها واهب الحياة ، وأهرامها الباقية على الزمن ، فخور بحضارتها التى استمدت منها كل الحضارات ، ومدنيتها التى ارتوت منها كل المدنيات :

لنا ذروة المجد الذى تحت ظله ... تناسلت الأحقاب واعْتَمل الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمهـا ... حديث الليالى فهى فى فمها ذكر
لنا كل ما فى الأرض من مدنية ... بها تعمر الأمصار والبلد القفر (٢)

---

(١) نفسه ص ٢٠٠ . عب النيل : فاض . جبرية : جبروت وقوة وقهر .
(٢) ديوانه ص ١٠٥ .

وفى « النشيد المصرى » الذى نظمه إعزازاً لمصر وفخراً بأمجادها الغابرة نراه يركز على هذه المعانى ؛ فيتغنى بعظمة مصر وحضارتها العريقة التى تتجلى فى تاريخها ونيلها وفسطاطها وأهرامها :

مصر لك التاريخ والأيـــام والنيل والفسطاط والأهـــرام
أيام لا ملك ولا نظـــام أنت عروس الأرض والبلاد (١)

ويقول إن مصر هى التى علمت الدنيا المدنية ، ونشرت نور العلم والمعرفة فى بقاع الأرض :

نشـرت نـور العـلم والعرفان من ساحل البحـر إلى السودان
وفى بلاد الروم والرومـــان مآثر جلّتْ عن التعـداد

ومصر منار العز والجلال ، ومجدها باق على الأزمان والآباد :

أنـت منـار العـز والجـلال وبهجـة الأيـام والليـالى
عزُّك منـذ الأعصر الخوالى باق على الأجيال والآبـاد

وهى بلاد الملك والفتوح من أقدم العصور ، ومن لدن عاد ونوح :

مصر بلاد الملك والفتـوح من عهد عاد وزمان نـــوح
فداك يا مصر دمى وروحـى من غيرِ الأيام والعـــوادى

ويشيد بمواطنى مصر من شبان وشيب ، ويقول إنهم أسود كواسر يهرعون لنجدتها ، ويهبون للذود عنها عند الشدائد والمحن ، ويرفعون علمها عاليا خفاقاً :

شبابهـا لأُسْـدها أشـبالُ وشيبها فى نصرها أبطـــال
فليعْلُ فى سمائها الهـــلال على الذُّرا وفى الوهـــاد

---

(١) نفسه ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

ومن حق مصر أن تباهى بمجدها الأثيل ، وبنيلها العظيم الذى تجرى فيها الحياة بجريانه ، وليبق عزها على الدوام :

مصر ازدهى فى مجدك الأثيـل وفاخرى بالنيل كل جيـل
يا عزُّ لا تعدو بلاد النيـــل منازل الآباء والأجـداد

وقد واكب الشيخ محمد عبد المطلب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وكرس لها نشاطه وفكره ، وأسهم بشعره الوطنى فى دعم هذه الوثبة المصرية العملاقة التى ألهبت الشعور الوطنى ، وقوت الوحدة بين أبناء الوطن « بعد أن صبت قوات الاحتلال العذاب ألوانا على المدن وعلى القرى ، فحصدت الأرواح ، وانتهكت الأعراض ، ولم تقف غلظتها الوحشية عند حد إحراق القرى وجلد أهلها ، وحصدهم بالمدافع الرشاشة ، وإلقاء القنابل عليهم من الطائرات ونهبهم ، وهتك أعراض نسائهم ، والاعتداء على الآمنين فى الطرقات ، وفى المحلات العامة ، وفرض الغرامات الفادحة الظالمة على مدن القطر المختلفة(١) »

وقد سجل الشيخ عبد المطلب بعض مشاهد هذا الطغيان فى قصيدته التالية التى تستثير الهمم وتبعث الحمية فى النفوس ، والتى تبدو فيها غيرته على وطنه وتنديده بالانجليز الطغاة ، ومنها قوله (٢) :

وارحمتاه لقرية مضجوعـــة والليل يرخى حولها الأسدالا
محزونة خبأ القضاء لأهلهـــا تحت الظلام وقيعة ونـكالا
من غادة غالَ البغاةُ عفافهـا فبكى الحجاب عفافها المغتالا

---

(١) الاتجاهات الوطنية ص ١٣٦ .
(٢) ديوان ص ١٩٥ ، ١٩٦
(٣) هى قرية العزيزية التى نكلت بها ثلة من جنود الانجليز وهم فى طريقهم من الجيزة إلى بنى سويف .

ومصونةٍ فى الخِدْر طار بلبّها صيحات كلب فى الحظيرة جالا
ماذا أرى جِنٌّ أحاط بمضجعى أم تلك أحلام تمر خيالا
ما هذه الجلبَاتُ ؟ لا أدرى لها معنى ولست أعى لهن مقالا
أنا لستُ نائمة وهذى جِنَّةٌ تدنو كأعجاز النخيل طوالا
ويلاهُ ما لأبى علىٌّ نائما ؟ والبيت من وقع الحوافر زالا
أعلىٌّ ناد أباكَ ، لا ، أنا خائف يا أُمُّ لا تتكلمى لا لا لا
هذى جنود الانجليز رأيتُها « بالبدرشين » تقتِّل الأطفالا
صاحوا بصحن البيت صيحة فاتك عاتٍ يرى النفس الحرام حلالا
فإذا متاعُ البيت يُنهبُ بينهم وقد استحلوا نهبه استحلالا
ولربَّ دارٍ بالقنابل أصبحت قبرا تضمَّن نسوة وعيالا
وأب تحيط به هنا لك صبيةٌ تبكى عليه وتُكثِرُ الإعوالا

لقد هاجت تلك الفواجع المؤلمة قلوب المصريين ، وأثارت نقمتهم على المعتدين البغاة ، ونسى المصريون فى غمرة هذه الأحداث والاضطهادات كل ما كان بينهم من خلافات ، فماتت الضغائن وبرئت القلوب من الأحقاد ، ورسموا الهلال يعانق الصليب على أعلام الثورة ، وخطب القسس فى المساجد ، وخطب علماءُ الدين من المسلمين فى الكنائس ، وتزاور الفريقان فى الأعياد (١).

وامتلأت النفوس إيمانا بمصر وحبالها ، وسرى الإحساس الوطنى حتى مس قلوبا كانت أبعد ما تكون عن الإحساس به (٢).

---

(١) أنظر الاتجاهات الوطنية ص ١٣٧ .
(٢) دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، د . حسين مؤنس ، دار المعارف ١٩٧٦ ص ٧٨ .

وفى مناسبة احتفال القبط بعيد النيروز سنة ١٩١٩ الذى حضره جمهور غفير من المسلمين يلقى الشيخ عبد المطلب قصيدته التى يشيد فيها بالوحدة الوطنية ، ومنها قوله(١) :

بنينا على آداب عيسى وأحمد ... منازل عزٍّ دونها يقع النسر
فنحن على الإنجيل والذِّكرِ أمة ... يؤيدها الإنجيل بالحق والذِّكْرُ
لنا كل مافى الأرض والحق قائم ... تؤيده الآيات والحجج الغُرّ
فلن يستطيع الدهر تفريق بيننا ... وإن جرَّ قوم بالسفاهة ماجروا
كلانا على دين به هو مؤمن ... ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا مادعت مصر ابنَها نهض ابنُها ... لنجدتها سيان مرقُس أو عمرو
فلايحسبن الناس أنا تزلزَلت ... بنا قدم أو مسَّ وحدتنا الضُّر

أجل لقد تحولت الثورة إلى حركة وطنية خالصة ، وبدت الوحدة أقوى ماتكون بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا معا يدا واحدة نهضوا بثورة ١٩١٩ ، وكلهم تجاوبوا مع الشيخ عبد المطلب فى هذا الشعور الوطنى الأصيل ، وكلهم أيضا رددوا قول شوقى ذلك الملهم الذى أحس نبض قلب مصر ، وجرى شعره على وقع هذا النبض :

أعهِدتنا والقبط إلا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما
نُعْلِي تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديَّان جل جلاله ... لو شاءَ ربك وحّد الأقواما(٢)

وستبقى هذه الوحدة الوطنية راسخة على امتداد القرون مهما حاول

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ١٠٤ - ١٠٦ .
(٢) دراسات فى ثورة ١٩١٩ ص ٢٠١ .

الحاقدون والمغرضون ضربها أو تقويضها ؛ فالشعب المصرى شعب راسخ وأصيل ، ومصر مهد السماحة منذ القدم .

وقد ظل الشيخ عبد المطلب يتابع أحداث الثورة ، ويسجل كل مراحلها وتطوراتها فى شعره بإحساس وطنى قوى ؛ فهو يسجل ماحدث ليلة اعتقل سعد وإخوانه فى بداية الثورة ، وحادث إطلاق الرصاص على سعد فى محطة القاهرة يوم سفره إلى باريس للمفاوضة ، ووصول الوفد إلى باريس سنة ١٩١٩ ، واعتقال سعد ورفاقه ، والترحيب بهم بعد عودتهم من باريس سنة ١٩٢٠ ، وأيضا بعد رجوعهم من منفاهم بجزيرة سيشل ، وينعى على المنشقين على الوفد ، ويحث على مقاومة الانجليز ودفع طغيانهم ، حتى ليمكن القول بأن الشيخ محمد عبد المطلب هو شاعر ثورة ١٩١٩ .

يقول عبد المطلب ليلة اعتقال الوفد أول مبدإ الثورة المصرية : (١)

أيها السائرون بالوفد ليلا خبرّونا عن وفدنا أين ولّى
ماقضينا للوفد حق وداع يوم جدّت به النوى فاستقلا
لو وجدنا إلى الوداع سبيلا لمهدْنا الخدود للركب سُبْلا
أيها السائرون بالوفد أسرى أرعيتم لنا ذِماماً وإلاّ

ويبعث بتحاياه إلى الوفد فى دار الإسار – على طريقة الأقدمين – فيحمل السحب القيام بهذه المهمة ، وإبلاغ الوفد الوفاء بالعهد ، واستمرار الكفاح والنضال ، وافتداءهم بالأرواح والمهج إذا مسهم الضر أو تعرضت حياتهم للخطر :

---

(١) ديوانه ص ١٨٨ إلا : ذماما وعهدا .

غادِيَ السُّحب إن مررتَ بأَرض حلها وفدنا فقِف حيث حلا
واسق دار الإسارِ من أَدمع السيل غزارا إن شئت أن تستهلا
واقرإ القوم أننا قد كتبنا عهدهم آية مع الذِّكر تتلى
وأَسلْنا له النفوس مِدادا فهى تجرى دما إذا الموت أَمْلَى

وينعى على المنشقين على الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول ، ويندد بعاقبة التنازع والاختلاف الذى حذر منه الزعيم (١) :

أَنذرت قومك والخطوب هَوَا فِى يلمعن بين قوادم وخوافى
ماضر لو سمعوا نداءَك فارْعَووا وسعوا إلى التوفيق والإيلاف
مابالهم كانوا الجميع فأَصبحوا شتى على مُتَنَاكَر الأَوصاف

ويدعو الزعماءَ إلى التآلف والتآخى وجمع الكلمة ؛ فالجميع إخوة يسعون إلى هدف واحد وغاية واحدة هى طرد المستعمر الدخيل ، وتحقيق الحرية والكرامة الوطنية ، ويوجه أَنظارهم إلى أَن الشر غايته البوار والخسران والخلاف لايستفيد منه غير المعتدين :

أَبَنِى أَبنِ رُدُّوا القلوب إلى الهدى وتنبّهوا فالدهر ليس بغافى
الوفد منا والحكومة بعضنا هذا أَخو هذا بغير خلاف
والشر غايته البَوار ومن أَبى فالله للشعب المروّع كافى

ولما عاد سعد من اعتقاله الأَول من باريس إلى مصر سنة ١٩٢٠ ـ وكان يوما مشهودا لم تر مصر مثله ـ أَلقى الشيخ عبد المطلب فى استقبال سعد قصيدته المشهورة التى مطلعها :

---

(١) ديوانه ص ١٥٦ ـ هوا فى : محلقة فى الجو محدقة بهم .

تكلم وادى النيل فليسمع الدهر وأَمْلَى على الأَيام فليكتب الشعر (١)

وفيها يحيي سعدا وصحبه ، ويدعو لهم بالمثوبة وحسن الجزاء لما يقدمونه من عمل مجيد للوطن وبنيه ، ويصف الاستقبال الرائع الذى استقبلت به مصر زعيمها فى البر والبحر :

جزى الله سعْداً حيث حل وصحبه عن النيل مايُجزى به الولَد البرّ
لك الله من سارٍ طوى شُقَّة النوى إلى قومه واليُمن يحدُوه والبشْر
لك الله من سارٍ إذا حل أَرضه تزاحم فى تكريمه البر والبحر
فنى البحر لاستقباله الفلك شُرَّعٌ وفى البر تجرى تحت موكبه القُطر

ويعرب الشاعر عن انبهاره بروعة اللقاء والفرحة الغامرة التى أَحاطت بها مصر زعيمها الذى تتجسد فيه آمالها فى الحرية والاستقلال :

خليلىَّ مالى خلَّيانى لعلَّنى أراجع أَنفاس تملكها البُهْرُ
أَرى مصر فى يوم من الزهو جامع له ضحكت أَسوان وابتسم الثغر
جموع تضيق الأَرض عنها وضجة عَلَتْ فى نواحيها وألوية حُمْر
وأَفئدة خفاقة فى جوانح وألسنة يحلو بها الحمد والشكر
يحيّون فى سعد أَمانىَ إن وفت فقد ثابت الأَيام واعتذر الدهر

ويبتهج الشيخ عبد المطلب بقيام الحياة النيابية فى مصر ووضع الدستور وإجراء الانتخاب أَيما ابتهاج ، ويقول فى تحية النواب والشيوخ يوم افتتاح البرلمان المصرى فى الخامس من مارس سنة ١٩٢٤ (٢) :

يا مصر حيّى من بنيك عصابة سمعوا نداءَك موهنا فأَجابوا
نهضَتْ إليك بهم صلابُ عزائم يوم الخطوب على الزمان صِلاب

---

(١) نفسه ص ١٠٧ .
(٢) ديوانه ص ٧ .

مدّ الأكف بالانتخاب إليهم طابت أكف الانتخاب وطابوا
فتواثبوا للأمر واضطلعوا بـه والحُرُّ فى طلب العلا وثّاب
تجرى إلى دار النِّيابة تحتهم نُجُبٌ على سَرَواتها أنجاب

ويعبر عن حب الشعب وفرحته العارمة بممثليه وعلى رأسهم الشيخ الجليل سعد زغلول ، فيقول :

تشتَفُّهُمْ حَدَقُ العيون شواخصا وتحوطهم بشباكها الأهداب
والجمع فياض الهتاف مرجِّعاً جاءَ الشيوخ وأقبل النواب
يحدُوهمُ الشيخ الجليل يحفُّه أبناءُ صدق منهم وصحاب
شيخ الوزارة والنيابة والوِفادة سعدُ مصرَ وليثها الغلاب

وكان الشيخ عبد المطلب شديد العصبية لسلف هذه الأُمة وقوادها وعلمائها وشعرائها ومؤلفيها فلا يكاد يسمع بحديث مزر عليها أو غاض من كرامتها حتى يغضب لها غضبة الليث الهصور ؛ فينبرى له تزييفا وتهجينا (١).

وكان بالشيخ وفاء نادر ووطنية صادقة دفعاه إلى رثاء من مات من الزعماء والقادة والأصدقاء والخلان ، فعندما توفى الزعيم سعد زغلول فاضت شاعريته برثاء قوى مؤثر أبان فيه عن لوعة حقيقية وعاطفة مكلومة ، فرثاه بقصيدته التالية التى يعبر فيها أصدق تعبير عن شدة حزن الشعب لفقد زعيمه ، وحالة الذهول والحسرة التى اعترت الجموع التى ضاق بها على السعة البراح (٢) :

---

(١) ديوانه : تصدير الأستاذ أحمد الاسكندرى .

(٢) ديوانه : ص ٥٤ . البراح : الفضاء . التياح : حرقة وعطش . البداح : المتسع من الأرض . الوقاح : الجرىء .

نعى الناعى إلى مصر أباها فزُلزلت الظواهرُ والبِطاح
نعى الناعى بجُنح الليل سعدا فيالله مافعلَ الصباح
جُموعٌ بالعرَاءِ مدلَّهاتٌ يضيق بها على الرَّبعَة البَرَاح
وأفئدة خوافقُ داميات تُفَرِّى فى جوانبها الجراح
وأجفان أَجفَّ الدمع فيها جوىّ بالضلوع له الْتِياح
وأبصار سكرنَ فلا انطباق ترفّ به الغداة ولا انفتاح

ويمضى الشاعر فيعدد مآثر الزعيم ومناقبه ، مبينا مدى رزء الأُمة وخسارتها الفادحة بفقده ، وجسامة المصاب فيه ، فيقول :

فقدنا أمةً فى ذات فرد يضيق بمثله البلد البَدَاح
فقدنا فيه معدل كل رأى إذا ما أعوز الرأى الصحاح
فقدنا فيه مأمن كل خوف إذا ما الحى فزَّعه الصباح
فقدنا فيه حكمة ذى أناة إذا ما الحكم أعوزه النجاح
فقدنا فيه عزة ذى إباء منيع حيّه لا يُستباح
فقدنا فيه عزمة ليث غاب يخاف مضاءها الليثُ الوقاح
فقدنا فيه فطنةَ ألمعىّ يضىء بلمعها الأمر البَرَاح

لقد استحال الرثاءُ عند عبد المطلب من رثاء للفقيد إلى رثاءٍ المحامد والمآثر الوطنية فى شخص المرثى ، وقد ركز الشاعر على فقد الزعيم سعد زغلول وأطال ترديده محاولا أن يجعل من هذا الفقد تجربة إنسانية عامة.

وهكذا كان الشيخ محمد عبد المطلب شاعر ثورة ١٩١٩ المشارك فيها ، والمسجل لأحداثها ، المحمس لرجالها ، يقول عنه الشاعر محمد الهراوى (١).

---

(١) ديوان عبد المطلب : رثاء فى صدر الديوان .

فَذَاكَ وإن جدَّتْ خطوبٌ وأَجْلَبت فإنك للجُلَّى وللحادث الجدّ
تخاطر والجُند المدجّج مُحدِقٌ وتمضى وصوت «الموزريات» كالرعد
فتبكى وتستبكى العيون على الحمى وتعدو على العادى عليه وتستعدى
نزلت عن النفس الكريمة فِدية إلى الوطن العانى كذلك من يفدى

ومن تتبعنا للاتجاه الوطنى فى شعر الشيخ محمد عبد المطلب يبدو لنا أنه قد حدد طابع الوطنية وجوهرها تحديدا إقليميا بحدود مصر المعروفة منذ فجر التاريخ ؛ فقد صور لنا مظاهر الوطنية من خلال إشادته بحب مصر والتغنى بجمالها ومعالمها القديمة وآثارها الخالدة ، والفخر بحضارتها التليدة التى هى أُم الحضارات ، ومدنيتها التى نهلت منها كل المدنيات ، والإشادة بحب المصريين لوطنهم ، والذود عنه ، وافتدائه بالنفس والنفيس عند الشدائد والمحن ؛ وقد تجلى ذلك عبر تاريخهم الطويل الحافل بالأَمجاد ، وفى مشاركتهم جميعا فى إيقاد جذوة الثورة المصرية الأَصيلة سنة ١٩١٩ إذ بدت الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين فى مقاومتهم الاحتلال الإنجليزى فى أَروع صورها .

وكان الشيخ عبد المطلب فى حديثه عن أَمجاد مصر وحضارتها القديمة يرمى إلى دفع الشباب وحفز عزائمهم إلى استعادة هذه الأَمجاد تارة أُخرى .

وهو فى كل هذا كان متوافقا ومتناغما مع نزعة «المصرية الفرعونية التى اجتاحت مصر فى تلك الآونة ، والتى كانت تحاول أَن تغزو سائر النواحى الثقافية ، وتدعو إلى إقامة الفنون على أُسس فرعونية (١)» .

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ص ١٤٧ .

وتزعمت صحيفة «السياسة الأسبوعية» آنذاك هذا الاتجاه فأفسحت صدرها لدعاته ، وكثر حديث هذه الصحيفة عن الفراعنة ، فلم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارتهم وثقافتهم ومجدهم(١) . وكانت تهدف إلى ضرورة أن تقوم نهضتنا الحديثة القوية على بعث المجد الفرعونى القديم ؛ لنضيف إلى قوتنا قوة وإلى أمجادنا أمجادا .

وقد ساعد على تقوية هذه النزعة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، وانشغال الناس بما كانت تنشره الصحف من صور الكنوز التى وجدت فيها .

وقد كتب شوقى أربع قصائد فى توت عنخ آمون (٢) ، لعل أشهرها وأكثرها ذيوعا وانتشارا قصيدته التى مطلعها :

قفى ياأخت «يوشع» خبِّرينا أحاديث القرون الغابرينا

ويعد شوقى رائدا فى هذا المجال ؛ فهو أول من أدخل الشعر التاريخى إلى شعرنا العربى .

وقد شارك حافظ إبراهيم فى تدعيم تلك النزعة المصرية الفرعونية ، فأشاد بمصر وآثارها القديمة ومعالمها الخالدة فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) ديوان شوقى طبعة مصر جـ ١ ص ٨٩ ، ٣١٣ ، جـ ٢ ص ١١٦ ، ١٩٧ .
وأخت يوشع هى الشمس فقد دعا أليشع عليه السلام ربه أن يؤخر غروبها حتى يفرغ من قتال أعدائه فاستجاب الله له .

(٣) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٨٩ - ٩٤ . وقد قال حافظ هذه القصيدة فى استقبال عدلى يكن بعد دعوته من أوربا قاطعا المفاوضات مع الانجليز سنة ١٩٢١ .

وقد ربط الشيخ محمد عبد المطلب الفخر بالوطنية مثلما فعل من قبل الشيخ رفاعة الطهطاوى رائد شعر الوطنية فى أدبنا العربى. فالفخر فن قديم فى تراثنا الأدبى ، ولكنه كان فخرا ذاتيا أو قبليا أو عرقيا أو دينيا ، ولم يكن فخرا وطنيا بهذا المفهوم الجديد .

لقد افتخر الشاعر الجاهلى بقبيلته وأمجادها ، وناصر شعراءُ الإسلام دعوتهم ، وأيد شعراءُ الأحزاب أحزابهم ، وتبارى شعراءُ النزعات العقائدية فى تمجيد مذاهبهم ، وفى هذه الألوان كلها لانرى مدلول الوطنية واضحا بالصورة التى نراها عند شعراءُ الوطنية فى العصر الحديث ؛ فالجاهلى يتحدث عن قبيلته التى لاتعرف الاستقرار فى موطن ، وشعراءُ الدعوة الإسلامية يتحدثون عن الفكرة العقائدية غير منتمية إلى زمان أو مكان ، وشعراءُ الأحزاب الأمويون يناصرون حزبا بذاته خارج أو داخل رقعة الوطن الواحد .

وشعراءُ التعصب المذهبى يدافعون عن المذهب بغض النظر عن الجنس أو الوطن أو الزمان أو الارتباط بإقليم معين والانتماء إليه ، ولاشىء من ذلك يعبر بدقة عن الوطنية – باعتبارها المجتمع السياسى الذى ننتمى إليه أو نحمل له شعورا بالانتماء إليه (١) ، كما نجد عند الشيخين : رفاعة وعبد المطلب .

يقول عبد المطلب مثلا – مفتخرا بمصر أم الحضارات التى انتشر منها ضياءُ العلم والمعرفة فى شتى بقاع الأرض :

نشرتِ نور العلم والعرفان من ساحل البحر إلى السودان

---

(١) راجع شعر الوطنية عند رفاعة الطهطاوى ص ٢٤ .

وفى بلاد الروم والرومان مآثرٌ جلَّتْ عن التَّعداد (١)

ويقول رفاعة :

الكونُ من مصر اقتبس نورا وما عنه احتبس
مصر لهـــا أيـــادى عُليـــا على البلاد (٢)

وأُسلوب الشيخ محمد عبد المطلب فى النشيد يجنح إلى السهولة والسلاسة والوضوح ويغلب عليه التعبير المباشر لأَنه يخاطب به وجدان الشعب وتردده القاعدة العريضة من الجماهير شأنه فى ذلك شأن الأَناشيد التى نظمها الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى كان «يمثل منعطفا واضحا فى تاريخ أُسلوب اللغة العربية التى كانت تنطلق من قيود الركاكة والإسفاف والضعف إلى السلامة والصحة والانتشار ، وممارسة التعبير عن العلوم والفنون والآداب . وقد أَسهم رفاعة بدور مشهود فى ذلك المجال بما ترجمه وما كتبه باللغتين الفرنسية والعربية ؛ إذ كان لممارسة الكتابة باللغة الفرنسية أَثر فى تحرر أُسلوب كتابته باللغة العربية (٣)» .

وأَما أُسلوب عبد المطلب فى شعره الوطنى فيمثل أُسلوب عصره ومحاولة التغلب على العيوب التى شاعت فيه من قبل من ضعف وركاكة وبديع متكلف ؛ فقد عاصر الشيخ عبد المطلب حركة إحياء التراث ونهضة الشعر العربى على يد محمود سامى البارودى الذى قدر له أَن «يثب بالشعر وثبة لم يكن يحلم بها معاصروه ولا كانت تمر بخواطرهم ، وهى وثبة جعلته يعد ـ غير مدافع ـ رائد الشعر الحديث ، والممهد الأَول لنهضته ؛ فقد فكه من قيوده البديعية الغليظة وأَغراضه الضيقة المحصورة المبتذلة ، ووصله بروائعه

---

(١) راجع النشيد المصرى فى صدر هذا البحث .

(٢) ديوان رفاعة جمع ودراسة د . طه وادى ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ .

(٣) الأعلام ، خير الدين الزركلى جـ ٣ ص ٥٥٥ . طبع بيروت . وشعر الوطنية عند رفاعة ص ٢٦ .

القديمة ، وصياغتها المحكمة الكاملة . كما وصله بحياته وحياة أُمته وصلا مخلصا صادقا أمينا ، وصلا يرقى به إلى مرتبة الشعر الرفيع الذى يمتع القلوب والعقول والأفئدة(١) » .

وعلى هذا النهج سار حواريوه من أمثال شوقى وحافظ وعبد المطلب وغيرهم .

ولذا كانت المحسنات البديعية قليلة جدا فى الشعر الوطنى عند عبد المطلب بعيدة عن التكلف . كما أن الألق العاطفى الذى أشاعه فى أبياته قد غطى – فى كثير من الأحيان – على استخدام تلك المحسنات .

وبهذا أسهم الشيخ عبد المطلب فى تخليص الأُسلوب من أغلال البديع ومن قيود التكلف والتصنيع .

ونلاحظ أن شاعرنا فى استخدامه الأُسلوب التصويرى يدور فى فلك الصورة البلاغية القديمة ، وقد غلبت نزعته البدوية على تصويراته فجاءت صوره من تشبيهات ومجازات بدوية قديمة ، فمصر : شبابها لأُسدها أشبال . والليل يرخى أسداله حول القرية المفجوعة ، وقد تأثر الشاعر بالصورة القديمة المشهورة فى قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

وعبد المطلب يطلب من السحاب أن يسقى دار الإسار – على عادة الأقدمين – فيقول :

غادى السحب إن مررت بأرض حلها وفدنا فقف حيث حلا
واسق دار الإسار من أدمع السيل غزارا إن شئت أن تستهلا

ويقول عن سعد زغلول إنه ليث غاب لايستباح حماه :

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث ، د . شوقى ضيف ، دار المعارف ١٩٦٤ ص ٥ ، ٦ .

فقدنا فيه عزة ذى إباء منيع حيه لايستباح

ويقول عن الشيوخ والنواب :

تشتفهم حدق العيون شواخصا وتحوطهم بشباكها الأهداب

فهذه الصور وأمثالها لاتضيف جديدا إلى ماهو مألوف من الصور البلاغية القديمة ؛ ذلك لأن الشيخ عبد المطلب كان متبديا بروحه وبشعره ، وقد اكتسب السليقة العربية الأصيلة والروح العربى الصميم من بيئته ودراساته العربية الخالصة وحفظه لكثير من الشعر العربى الرصين ولاسيما شعر الأقدمين مما أضفى على شعره الطابع البدوى ؛ فهو كثيرا مايصدر قصائده – على عادة الأقدمين – بمقدمة الأطلال التى كانت تمثل جزءًا أصيلا من حياة الشاعر البدوى ، كما يصدر بعضها بالمقدمة الغزلية الحجازية التى نجدها فى شعر عمر بن أبى ربيعه وجرير والشريف الرضى وأضرابهم . والتى يكثر فيها ذكر الأماكن الحجازية مثل : النقا واللوى والغور والجزع والمصلى وقباء ويثرب ، كما تذكر أسماءُ المحبوبات البدويات مثل : سعاد وسلمى وليلى ، ومثال ذلك فى شعر عبد المطلب قوله(١) :

أرى العِيسَ حَسْرَى مابهن ذماءُ فَعِدْهُنَّ «سلعا» إنهن ظماء

أثِرها على ذكرى قباء ويثرب فأقصى مناها يثرب وقباء

وقوله :

حىِّ المنازل هذا بعض مايجب واستَحْيِ قلباعلى ذكر الحمى يَجِبُ

وساجِل الوُرْقَ فى تِلك الربى وأعِدْ ذكر اللَّوى فلقلبى باللوى طرب

---

(١) ديوانه ص ٥ .

ياويح قلبي قد حلَّتْ «سعاد» به حيث الأَسنة والهندية القُضُب(١)

فى هذه الأَبيات وغيرها تبدو محاكاته للشعراء القدامى وتمسكه بالأَلفاظ البدوية والخيال البدوى ، مما كان له أَثره فى تصويراته فى شعره الوطنى .

ولما كانت الأَناشيد الوطنية تتطلب الإِيقاع الملائم للإِنشاد الجماعى وخطوات الجند كان لابد من التنويع فى الوزن والقافية مع سهولة الأَلفاظ وقوة جرسها الموسيقى والتعبير المباشر ، وهذا مانجده فى النشيد عند الشيخ عبد المطلب . والذى تأَثر فيه بتلك الأَناشيد الوطنية التى نظمها الشيخ رفاعة الطهطاوى أُستاذ هذا الفن ، ومنها نشيده الذى يقول فيه (٢) :

ياصاح حب الوطن حِليةُ كل فَطِنِ
محبَّـــة الأَوطـــان من شُعَب الإِيمان
فى أَفخر الأَديان آية كل مؤْمن
ومصر أَبهى مولد لنا وأَزهى مَحْتد
ومرْبـــع ومعهـــد للروح أَو للبدن

وقد تأَثر فيها رفاعة بدوره بالشعر الفرنسى المتحرر من القوافى والأَوزان ولا سيما نشيد «المار سيلييز» وهو نشيد فرنسا الوطنى الذى واكب الثورة الفرنسية (١٧٩٢ – ١٨٠٤ م) وكان هذا النشيد قد طبق الآفاق قبل أَن يحط رفاعة رحاله فى باريس ، أَى قبل الفترة التى قضاها رفاعة فى فرنسا فى المدة من ١٨٢٦ – ١٨٣١ م .

---

(٢) ديوانه ص ١٥ .

(١) ديوان رفاعة ص ٩٣ .

وهكذا كان الشيخ محمد عبدالمطلب صادقا كل الصدق فى شعره الوطنى الذى أداره فى نطاق «المصرية» ، وكان متأثرا فيه بالمفهوم السياسى المعاصر للوطنية .

وقد ربط الشيخ عبد المطلب الفخر بالوطنية ، وكان بحق شاعر الثورة المصرية سنة ١٩١٩ دون منازع .

وقد نظم النشيد المصرى الوطنى متحررا فيه من قيود القافية ومتأثرا بتلك الأناشيد الوطنية التى نظمها الشيخ رفاعة الطهطاوى أستاذ هذا الفن فى شعرنا العربى .

كما طور الشيخ عبدالمطلب فى أسلوب الشعر العربى ، وأسهم فى تخليصه من أغلال البديع المتكلف .

أهم مراجع البحث

١ ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ، د . محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز .

٢ ـ الأعلام ، خير الدين الزركلى جـ ٣ ، طبع بيروت .

٣ ـ الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ، تحقيق محمد عمارة جـ ٢ طبعة بيروت ١٩٧٤ .

٤ ـ البارودى رائد الشعر الحديث ، د . شوقى ضيف . دار المعارف ١٩٦٤ .

٥ ـ تنظير السياسة ، د . محمد طه بدوى ، الإسكندرية ١٩٦٨ .

٦ ـ دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، د . حسين مؤنس ، دار المعارف ١٩٧٦ .

٧ ـ ديوان حافظ جـ ٢ .

٨ ـ ديوان رفاعة ، جمع ودراسة د . طه وادى ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ .

٩ ـ ديوان شوقى طبعةمصر جـ ١ ، ٢

١٠ـ ديوان عيد المطلب ، مطبعة الاعتماد .

١١ ـ شعر الوطنية عند رفاعة الطهطاوى ، د . احمد سيد

ندوة الطهطاوى بسوهاج فبراير ١٩٨١

obert, Le edition, Paris, 1972 ،